(٨٠) سورة عبس

من الاشارات الكونية فى سورة عبس

(١) التأكيد على خلق الإنسان من نطفة تحمل جميع صفاته، وكل المقدر له.

(٢) الإشارة إلى انتهاء فترة الحضانة الرحمية بولادة الجنين، وإلى تذليل طريق خروجه من بطن أمه بيسر إلى الحياة من حولهما.

(٣) الجزم بحتمية الموت، وضرورة القبر، وحتمية البعث والحساب والجزاء.

(٤) الإشارة إلى حقيقة أن كثيرا من الناس تمضى بهم الحياة دون أن يعرفوا الغاية من وجودهم فيها، أو أن يحققوا شيئا من واجباتهم، فتنتهى آجالهم وكل واحد منهم صفر اليدين من الحسنات، ومثقل الكاهل بالذنوب، ولذلك قال (تعالى):

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٣].

(٥) لفت أنظار الناس إلى معجزة توفير الطعام لجميع الكائنات الحية، وفى مقدمتها الإنسان وأنعامه.

(٦) الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بوصف إنزاله من السماء.

(٧) وصف شق الأرض بواسطة إنزال الماء عليها، أو ريها من أجل استزراعها، أو شقها بواسطة البادرات النباتية الخارجة منها، وكله صحيح.

(٨) الإشارة إلى خلق مختلف أنواع النباتات، وإعطاء النماذج الأساسية منها التى تشكل الغذاء الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه من مثل الحبوب، والأعناب، والبقول، والخضراوات، وعلف الدواب الرطب كالبرسيم (القضب)، والزيتون، والنخل، والحدائق ذات الأشجار المتشابكة، وأشجار الفاكهة، والكلأ والمرعى (الأبّ).

(٩) تشبيه إحياء الأجسام بعد تحللها وتحولها إلى تراب بإحياء النبات من الأرض الهامدة بعد إنزال الماء عليها، ووصف ما يصيب الناس من هلع فى يوم القيامة بفرار المرء من أقرب الناس إليه وألصقهم به.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾

[عبس: ٢٤]

كل قضية من القضايا والآيات الكونية الواردة فى سورة عبس تحتاج إلى معالجة خاصة بها، لكنى سوف أقصر حديثى هنا على القضية المتعلقة بدعوة القرآن الكريم للإنسان الجاحد أن ينظر إلى طعامه ليدرك مدى نعم الله (تعالى) عليه فى هذه القضية وحدها التى لخصتها سورة عبس فى تسع آيات مباركة، حيث يقول (عز من قائل):

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤ـ ٣١].

من الدلالات العلمية للآيات الكريمات

أولا: فى قوله (تعالى): ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾

الآيات التى تتحدث عن الطعام فى سورة عبس بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس: ٢٥] ومن الثابت علميا أن الماء سابق فى وجوده على خلق الحياة؛ لأن الحياة الأرضية التى نعرفها لا تقوم بغير الماء الذى أخرجه ربنا (تبارك وتعالى) أصلا من داخل الأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣٠ـ ٣١].

ثانيا: فى قوله (سبحانه وتعالى): «أنا صببنا الماء صبا»

تعتبر دورة الماء حول الأرض من دلالات طلاقة القدرة الإلهية، فقبل إخراج ماء الأرض ـ من داخلها عبر فوهات البراكين ـ كان الله (تعالى) قد هيأ لها سقفا باردا يتكثف عنده بخار الماء، وهو الحد العلوى لنطاق الرجع (نطاق التغيرات المناخية) الذى تصل عنده درجة الحرارة فوق خط الاستواء إلى ٦٠ درجة تحت الصفر، ولولا هذه الحقيقة لارتفع بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى طبقات الجو العليا، وانفلت من نطاق جاذبية الأرض إلى فسحة الكون، ولو حدث ذلك ما كنا ولا كانت الحياة من حولنا على الإطلاق.

وعند وصول بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى الحد الأعلى لنطاق الرجع تكثف وعاد إلى الأرض مطرا، وساعد تكرر نزول المطر على تبرد الغلاف الصخرى للأرض، كما ساعد على سيلان الماء على سطح الأرض شاقا أودية له على هيئة أعداد من الأنهار والجداول، وعلى تحركه إلى منخفضات الأرض ليملأها بالماء مكونا البحار والمحيطات والبحيرات، وغير ذلك من تجمعات الماء على سطح الأرض، وبمجرد تكون ذلك بدأت أشعة الشمس فى تبخير هذا الماء ليرتفع على هيئة بخار يعلق بأجزاء من الغلاف الغازى للأرض مكونا السحب التى يتكثف منها الماء ليعود إلى الأرض مطرا، وبَرَدا، وثلجا.

وقد استمرت دورة الماء حول الأرض منذ أن أخرج الله (تعالى) منها ماءها، وسوف تستمر إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وبهذه الدورة المعجزة التى يتحرك بها الماء من غلاف الأرض المائى إلى غلافها الهوائى ليتطهر مما يتجمع فيه من ملوثات، ومواد يذيبها من الغلاف الصخرى للأرض، أو تعلق به فى أثناء جريانه على سطحها، أو من بقايا بلايين الكائنات الحية التى تحيا وتموت فى الأوساط المائية. وتمتد دورة الماء من نحو الكيلومتر الواحد تحت سطح الأرض إلى ارتفاع يقدر بنحو خمسة عشر كيلومترا فوق مستوى سطح البحر، فتعمل على تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسبة معينة من الرطوبة فى كل من الغلاف الغازى للأرض وتربتها تحتاج إليه غالبية صور الحياة، إن لم تكن جميعها،

خاصة فى المناطق الصحراوية. وبواسطة هذه الدورة المائية التى استمرت على مدار عمر الأرض المقدر بنحو خمسة بلايين من السنين تمت تسوية سطح الأرض، وشق الفجاج والسبل فيها، كما تم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وخزن قدر من هذا الماء فيها وفى غيرها من صخور قشرة الأرض، وتكوين أعداد من الصخور الاقتصادية، والركازات المعدنية المهمة.

ولولا هذا الإعداد الربانى الدقيق ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران؛ ولذلك يمن علينا ربنا (تبارك وتعالى) ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بقوله (عز من قائل): ﴿ *أنا صببنا الماء صبا* ﴾ أى أنزلنا الغيث من السماء إنزالا؛ لأن صب الماء هو إراقته من أعلى، والصبيب هو المصبوب من المطر، وإن استعمل لغيره من السوائل، فإذا علمنا أن كمية الماء الأرضى تقدر بنحو ١.٤ بليون كيلومتر مكعب، وأن من هذه الكمية الهائلة التى أخرجها ربنا (تبارك وتعالى) لنا من داخل الأرض يتبخر سنويا ٣٨٠ ألف كيلومتر مكعب، ثم تعود كلها إلى الأرض مرة أخرى مطرا طهورا، يوزعه الله (تعالى) بعلمه، وحكمته، وقدرته، إذا علمنا ذلك لأدركنا قيمة هذه النعمة الإلهية الكبرى التى وصفها الحق (تبارك وتعالى) بقوله: ﴿ *أنا صببنا الماء صبا* ﴾، وقوله (عز من قائل):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾

[الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩].

ثالثا: فى قوله (عز من قائل): ﴿ *ثم شققنا الأرض شقا* ﴾

ترد كلمة الأرض فى القرآن الكريم بثلاثة معان محددة لتعنى كوكب الأرض فى مجمله، أو الغلاف الصخرى المكون للبابسة التى نحيا عليها، أو قطاع التربة الذى يغطى ذلك الغلاف الصخرى فى بعض أجزائه، كما هو واضح من الآية الكريمة التى نحن بصددها؛ لقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ *ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا* ﴾؛ وذلك لأن الحب لا ينبت إلا فى التربة، وكذلك الغالبية الساحقة من النباتات.

وتتكون تربة الأرض بالتفاعل المعقد بين أغلفتها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحيوية؛ مما يؤدى إلى التفكك الفيزيائى والتحلل الكيميائى والحيوى لصخور الأرض بواسطة عوامل التعرية المختلفة، وتلعب الكائنات الحية من مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب، وجميع النباتات، وبعض الحيوانات دورا رئيسيا فى تكون التربة التى تعتبر مصدر الغذاء والماء لحياة كل النباتات الأرضية، بل لحياة كل من الإنسان والحيوان.

وتتكون التربة الأرضية فى قطاعها العلوى أساسا من معادن الصلصال، وحبات الرمل، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنيسيوم، وإن كانت أنواع التربة تتعدد تعددا هائلا بتعدد أنواع الصخور التى تنشأ عنها، والظروف الطبيعية والكيميائية التى تتعرض لها، وأنواع الكائنات الحية التى تزخر بها، والتى تلعب أدوارا رئيسية فى إعدادها.

وعلى الرغم من ذلك تبقى المعادن الصلصالية قاسما مشتركا فى معظم أنواع تربة الأرض، والمعادن الصلصالية لها شراهة شديدة للماء، فإذا وصلها امتصته بسرعة فتميأت؛ مما يؤدى إلى زيادة حجمها، فتهتز وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة، فتنشق لتفسح طريقا آمنا لسويقة (ريشة) النبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة فى التربة، ومن هنا كانت تلك الإشارة القرآنية المعجزة فى هذه السورة المباركة التى جمعت بين صب الماء، وشق الأرض، والإنبات فى تسلسل دقيق معجز يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾
[عبس: ٢٥ ـ ٢٧].

ومن أسباب اهتزاز التربة وارتفاعها حتى تنشق دقة حجم حبيبات المعادن الصلصالية (أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) التى تتحول إلى الحالة الغروية بمجرد اختلاط الماء بها بكمية كافية، وهى حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهات، وعلى كل المستويات فى حركة دائبة تؤدى إلى اهتزاز التربة

وانتفاخها وانتفاضها بشدة حتى تنشق، وكلما زادت كمية الماء المختلط بالتربة زاد اهتزازها وارتفاعها، وسارع ذلك فى تشققها بإذن الله (تعالى).

رابعا: فى قوله (جل شأنه): ﴿***فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم***﴾

هذا التسلسل المعجز فى ست آيات قصار يكاد يشمل جميع النباتات التى تصلح طعاما ومتاعا لكل من الإنسان وأنعامه...

(١) **فالكلمة**: (حبا) تشمل جميع أنواع الحبوب (من ذوات الفلقة الواحدة) من مثل القمح، والشعير، والشوفان، والذرة، والأرز، وغيرها، وتنطوى هذه النباتات فى عائلة واحدة تعتبر من أكثر النباتات نجاحا؛ لأنها تسود مساحات من اليابسة أكثر من أية نباتات أخرى، وتعرف هذه العائلة باسم «**عائلة النجيليات**» (العائلة النجيلية) وتشمل نحو سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات، وهى أهم عائلة نباتية بالنسبة لكل من الإنسان والحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام؛ لأن جميع أنواع الحبوب اللازمة لحياة كل منهما تنطوى فى هذه العائلة، وقد أنبتها الله (سبحانه وتعالى) قبل خلق الإنسان بملايين السنين، وأخذ الإنسان فى زراعتها منذ أيام ما قبل التاريخ.

وبالإضافة إلى هذه المحاصيل المهمة من الحبوب تضم عائلة النجيليات محاصيل أخرى مهمة من مثل قصب السكر، وأعشاب المراعى، ومنها الحولية والمعمرة، كما تضم بعض النباتات الخشبية من مثل نبات الخيزران.

(٢) **والتعبير القرآنى**: «***وعنبا وقضبا***» أيضا تعبير معجز؛ لأن (العنب) يشير إلى رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هى رتبة العنابيات، وتشمل عائلتين مهمتين هما: «**عائلة العناب**»، وتشمل ٤٥ جنسا، و٥٥٠ نوعا من أنواع النباتات واسعة الانتشار من مثل العناب، والنبق، و«**عائلة الأعناب**»، وتشمل ١١ جنسا، و٦٠٠ نوع من أنواع العنب، وهو واحد من أهم المحاصيل النباتية.

أما (**القضب**) و(**القضبة**) فهو الرطب من ثمار النبات، و(**القضب**) أصلا هو

القطع، و(**اقتضبه**) أى اقتطعه ؛ ولذا استعير (**القضب**) لما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضا طريا كالبقول التى تقطف ثمارها فينبت مكانها، أو تقطف النبتة فينبت أصلها، وفى ذلك إشارة إلى العائلة البقولية، وهى ثانى أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه فى طعامه بعد العائلة النجيلية، وهى عائلة نباتاتها منتشرة فى جميع أنحاء العالم، وتشمل نحو ٦٠٠ جنس، و١٢,٠٠٠ نوع من أنواع النباتات ذات الفلقتين، وتشمل فيما تشمل: الفول، والعدس، والحمص، والفاصوليا، واللوبيا، والبازلاء، وفول الصويا، والفول السودانى، والترمس، والحلبة، والخروب، والتمر هندى، وغيرها، وكلها من ذات الثمار القرنية ؛ ولذلك تعرف أحيانا باسم «**العائلة القرنية**».

كذلك تشمل هذه العائلة نبات البرسيم الحجازى الذى يعتبر علفا رئيسيا للحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام، وغيرها من أعشاب المراعى والأعلاف، ونباتات الزهور، والنباتات الطبية.

(٣) **والتعبير القرآنى**: «*وزيتونا ونخلا*»: يشير إلى عائلتين من أهم العائلات النباتية هما: «**العائلة الزيتونية**»، و«**العائلة النخيلية**»، والأولى تشمل ٢٢ جنسا، و٥٠٠ نوع من أنواع الأشجار الزيتونية وهى أشجار معمرة، فأشجار الزيتون تعيش لأكثر من ألفى سنة، وهى شجرة مباركة كما وصفها القرآن الكريم، ونعتتها أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم). أما العائلة النخيلية فتشمل ٢٠٠ جنس، وأكثر من أربعة آلاف نوع من أنواع النخيل، والنخيل من أكثر النباتات احتمالا للجفاف والملوحة، وتنمو فى المناطق الحارة الجافة والمعتدلة، وثمارها ومنتجاتها تعتبر من أهم المصادر النباتية التى اعتمد عليها الإنسان فى حياته منذ وطئت قدماه هذه الأرض.

(٤) **والتعبير القرآنى**: «*وحدائق غلبا*» أى حدائق عظاما، غليظة الأشجار، ملتفة الأغصان، لتشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات، خاصة نباتات الظل، والزينة، والأخشاب، كما تشمل الكثير من نباتات الثمار المختلفة التى لا تنضوى فى المجموعات السابقة.

(٥) **أما التعبير القرآنى**: «*وفاكهة وأبا*» فيركز على نباتات الفاكهة المختلفة التى لا

تحتويها المجموعات السابقة من مثل «**العائلات التوتية**» (وتشمل التين، والجميز، والتوت، وغيرها)، و«**الوردية**» (وتشمل المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكريز، واللوز تحت العائلة المشمشية، والتفاح، والكمثرى، والبشملة، والسفرجل تحت العائلة التفاحية) و«**السذبية**» (عائلة الموالح) وغيرها.

أما (**الأبّ**) فهو الكلأ والمرعى، وما تأكله البهائم كالأنعام من العشب، وغيره من أنواع النبات رطبا كان أو يابسا (مثل التبن).

وهكذا نرى فى هذا التسلسل المعجز لخمس آيات قصار لا تشغل أكثر من سطرين استعراضا لأهم النباتات التى تشكل الطعام الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه؛ ولذا ختمت بقول الحق (تبارك وتعالى): «***متاعا لكم ولأنعامكم***»، وعلوم تقسيم الحياة بصفة عامة، وعلم تقسيم النبات بصفة خاصة هى علوم مستحدثة فى تاريخ الإنسان، بدأت مع منتصف القرن الثامن عشر الميلادى، ولم تتبلور إلا فى أواخر القرن العشرين. واستعراض الآيات التى نحن بصددها لأهم مجموعات النبات فى طعام كل من الإنسان وأنعامه بهذه البساطة، والدقة، والشمول، والإحاطة؛ لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق (سبحانه وتعالى).

إحياء الأرض بماء السماء

أنزل الماء من السماء وسلكه ينابيع فى الأرض

من خيرات الأرض

من ثمار الأرض

من بعض ما أنعم الله على الإنسان من ثمار الأرض

النخيل وثماره من أفضل طعام الإنسان

بعض ثمار الأرض